﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾ [الملك: 7 - 9]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

إثْباعُ ذِكْرِ العذاب بالبيان والتَّفصيل

لمّا ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾، ما أعدَّه للكافرين من جزاءٍ؛ أتْبَعَ ذلك بوصف هذا العذاب بيانًا وتفصيلًا، فقال: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾[1].

فتأتي هذه الآيات التّالية بعدَ قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، تفصيلًا وشرحًا لذلك الإجمال؛ لأنَّ لفظ (بئس) يدلُّ على ذمٍّ شديد لمصير شقيٍّ بائسٍ استحقَّه الكافر بما ارتكب من كفر ومعصية، ولكنْ ما حقيقةُ هذا المصير المذموم؟ تُجيب عنه هذه الآيةُ والآياتُ اللّاحقة، التي تَصِفُ أهوالَ العذاب وصفًا حيًّا، فتُظهر شدَّته وفظاعته، وتُجسِّد مشاهدَ العذاب المُرعبة من صوتِ الشَّهيق، وحرارة الجحيم، وشِدَّة الحال، وحسرة المآل[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُلۡقُواْ﴾ أصْلُ (لقي) يَدلُّ على طَرْحِ شَيءٍ[3]، وألْقَيْتُهُ: نَبَذْتُهُ إلقاءً، والشَّيءُ الطَّريحُ لَقًى، واللَّقَى: الشَّيءُ المُلقى المَنْبوذ[4]، والمُلْقَى: هو ما طُرِحَ، وتُرِكَ لهَوانِه[5]، والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 234.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).

تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[1]، والإلقاءُ أيضًا الرَّميُ[2]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِن غير سَبْقِ تهيُّؤٍ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][3]، والمُراد بالإلقاء في الآية: طُرِحوا كما يُطْرَح الحطَبُ في النّار[4].

2) ﴿شَهِيقًا﴾ (شهق) تَدُلُّ اشتقاقاتُها على عُلوٍّ[5]، والشَّهيقُ: طولُ الزَّفير، وهو ردُّ النَّفَس[6]، والزَّفيرُ: إخْراجُهُ[7]، فكأنَّ الشَّهيق يرفَعُ به الإنسانُ صدرَه، فيعلو، وهو حبسُ النَّفَس قبل إخراجه بالزَّفير، والشَّهيقُ: أقبحُ ما يكونُ مِن صَوتِ الحِمارِ، قيل: هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، وقيل: هو آخِرُه[8]، ومعنى قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾، أي: صوتًا كصوتِ الحميرِ، وهو حسيسُها المنكرُ الفظيعُ[9].

3) ﴿تَفُورُ﴾: أي: تَغْلي: وأصل (فور) يدُلُّ عَلَى غَلَيانٍ، يُقالُ: فارَتِ القِدْرُ تَفورُ فَوْرًا؛ إذا غلت، والفوّارة: ما ترمي به القِدْرُ عند فَورانِها، وفَوّارة الماء على التَّشبيه بذلك[10]، ومعنى فار: اندَفَع، وجاشَ، والفورانُ: جَيَشانٌ إلى أعلى بقوَّة واندفاعٍ، يُقال: فارَ الماءُ مِنَ العَيْن يَفور؛ إذا جاشَ[11]، والمعنى هُنا: تَغْلي بهِم غليانَ المِرْجَل بما فيه[12].

4) ﴿تَمَيَّزُ﴾: تتفرَّق، و(ميز) تدورُ تصريفاتُها على تَزَيُّلِ شَيءٍ مِن شَيءٍ وانفصاله عنه، يُقال: مَيَّزْتُهُ تَمْييزًا، ومِزْتُهُ مَيْزًا، وامتازوا: تَمَيَّزَ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ، وانمازَ الشَّيءُ: انفَصَلَ عَنِ الشَّيءِ، ومِزْتُ الشَّيءَ: عَزَلْتُهُ، وفَرَزْتُه[13]، والمعنى في الآية: تكادُ تتفرَّق، وتتقطَّع، ويَنفَصِلُ بَعضُها مِن بَعضٍ مِن تَغَيُّظِها عَلَيهِم[14].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (لقى).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 156.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/ 123.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهق).
(6) الرّاغب، المفردات: (شهق).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (شهق).
(8) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح: (شهق).
(9) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 4، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 83.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فور).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فور).
(12) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ميز).
(14) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 509، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310.

5) ﴿فَوْجٌ﴾: الفوجُ: الجماعة المارَّة المُسرعة، وجمعه: أفواج[1]، وأصلُ الفاءِ والواو والجيم يدُلُّ على تجمُّعٍ[2]، والمعنى في الآية الكريمة: فِرقةٌ وجماعة من الكفرة[3].

5) ﴿خَزَنَتُهَآ﴾: (خزن) تدور اشتقاقاتُها على صيانَةِ الشَّيءِ، يُقال: خزنتُ الدِّرهمَ والسِّرَّ[4]، والخِزانةُ، واحدةُ الخَزائِنِ، وهو اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَن فيهِ الشَّيءُ[5]، والخازنُ: الموكَلُ بالحفظِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيء في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ. والمعنى في الآيةِ: الملائكةُ الموكَلُ إليهم أمرُ جهنَّم[6].

7) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقال: ضَلَّ في الأمر؛ إذا لم يَهْتَدِ لَهُ[7]، والضّاد واللّام تَدلُّ تصريفاتُها على ضَياعِ الشَّيءِ وذهابِه في غير حقِّه[8]، ورَجُلٌ مُضَلَّل: لا يوفَّقُ لِخَيْرٍ[9]، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيقال: هوَ ضالٌّ، أمّا الضّالَّةُ؛ فللبَهيمةِ، وهي الحيوان الضائعُ[10]، والمعنى في الآيةِ الكريمة: بُعدٌ عن الطَّريقِ، وخطأٌ وعمًى محيط بِكُم[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يصفُ اللّه سُبحانه حالَ الكافرين عند طَرْحِهِم جميعًا في نار جهنَّم، فيقول: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾، أي: يسمعون صوتًا مُرعبًا فظيعًا يصدرُ منها، يُشبه في قُبْحِه نهيقَ الحمير، وهو صوتٌ ناتج عن شدَّة غليانها واضْطِرامِها من لَهَبِها المتأجِّج، وتكاد هذه النّارُ أن تتفرَّق، وتتقطَّع من شدَّة غضبها وغيظها على هؤلاء العصاة، كلَّما أُلقي فيها فوجٌ من الكافرين؛ استقبلهم خزنَتُها بالتَّوبيخ قائلين: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ أي: ألَمْ يأتِكم في الدُّنيا من يحذِّركم عذابَ اللّهِ تعالى، ويدعوكم إلى الإيمان به؟[12] قال الكافِرونَ لخَزَنَةِ

(1) الراغب، المفردات: (فوج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوج).
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والهرري، حدائق الرَّوح والريحان: 30/ 26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.
(7) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(9) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغَة: (ضل).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ضلل).
(11) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 23.
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.

التَّصوير المهيب لعذاب الكافرين وتوبيخُ الخزنَةِ لهم

جَهنَّمَ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ يُنذِرُنا عذابَ اللهِ تعالى، ولكِنَّنا كذَّبْنا، وقُلْنا للمُنذِرينَ: ما نزَّل اللهُ سُبحانَهُ على أحدٍ مِن الخَلْقِ أيَّ شَيءٍ مِنَ الوَحي، وقال الكافِرونَ أيضًا لِمَن أنذَروهم: ما أنتُم إلّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الفصل في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾:

بيان وصف المصير البائس وتفصيلُ ما فيهِ مِن أهوالٍ

جاء قول الله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾، في السّياق استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأل: ما وجهُ هذا المصيرِ الذي وُصِف بأنَّه بئسَ المصير؟ فجاء الجوابُ بهذه الآية؛ لتَفْصيل ما فيه من أهوالٍ، فهي بيانٌ لِما يلقاه الكافرون في جهنَّم من صوَر العذاب. ومِمّا يُبيِّن شدَّة مذمَّة مصيرهم: تلك الأصوات المُفزعة التي يسمعونها من جهنَّم عند طَرْحِهم فيها، وما يُصاحِبُهُ مِن فوران للنّار واضطِرامِها، وكلُّ هذا يُضاعف مِن هَوْلِ المَشهَد ورهبَةِ المآل[2].

معنى ﴿إِذَآ﴾ في الجُملة الكريمة:

تحقُّق إلقائهم في النّار واقتران سَماعِهم لشَهيقها بمُجرَّد ذلك الإلقاء

﴿إِذَآ﴾ في الآية ظرفٌ، وبلاغةُ التَّعبير بها: الدَّلالة على أمرين، أحدهما: تحقُّق إلقائهم في النّار؛ لأنَّ ﴿إِذَآ﴾ تُستعمَلُ فيما عظُمَ، وكَثُر، وتحقَّق، بخلاف (إن)؛ فإنَّها تُستَعمل فيما شُكَّ فيه، أو نَدُر، أو قَلَّ، أو عُدِم. والأمر الآخَرُ: أنَّها تدلُّ على الاقتران بين زَمَنِ فِعْلِها وجوابها، فدلَّت من هذه الحيثيَّة على سرعة تحقُّق سماعهم لشهيقها بمجرَّد الإلقاء[3].

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236، 237، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 311.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.

معنى ﴿أُلْقُواْ﴾ ودلالتهُ في السّياق:

بيانُ مهانةِ مَن وقَعَ عليهم هذا الفعلُ، وكونُ جهنَّم سُفليَّة

الإلقاءُ فيه نوعُ مهانة، وعُبِّر به هُنا؛ لبيان مهانة مَن وقع عليهم هذا الفعل، فأهلُ النّارِ – والعياذُ باللهِ – يُلْقَون فيها إلقاءً؛ لا يَدخلون مُكَرَّمينَ، بل يُدَعّون إلى نارِ جهنَّمَ دَعًّا، فما لا قيمة لهم، فاستحقّوا الإلقاء، أمّا الشَّيء الذي له شأنٌ وقيمة، فإنَّه يوضَع في مكان لائقٍ، ولا يُلقى، فكان في التَّعبير بالإلقاء دونَ الإدخالِ إشعارٌ بتحقيرهم، وكونُ جهنَّم سُفليَّة[1].

بلاغة التَّعبير بالماضي في ﴿أُلْقُواْ﴾:

الدَّلالة على أنَّ فِعْلَها مُتحقِّق مُتيَقَّن

الأصل في فعل الشَّرط الواقع بعد ﴿إِذَآ﴾ الشَّرطية أن يكون ماضيًا مُرادًا به الاستقبالُ، كما هو هُنا في قوله: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾، وقلَّ أن يكون مُضارِعًا كقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [الشورى: 29]، وإنَّما بُنيت هنا بصيغة الماضي مع أنَّها مُستقبلةٌ بقرينة ﴿إِذَآ﴾؛ لتدلَّ على أنَّ فعلها مُتحقِّق مُتيَقَّن، فعُبِّر به عن الماضي مسبوقًا بأداة التَّحقيقِ؛ دلالةً على أنَّه أمر لا بُدَّ منه واقعٌ لا محالَةَ[2].

بلاغة التَّعبير بالبناء للمفعول في ﴿أُلْقُواْ﴾:

الدَّلالة على أنَّ إلقاءهم في غاية السُّهولة على كُلِّ من يُؤْمَر به

الاستغناء عن تسميةِ الفاعل ببناء الفعلِ على ما لم يُسَمَّ فاعله في قوله: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾، دلالةٌ على أنَّ إلقاءَهُم يسيرٌ على أيِّ فاعل يُؤْمَر بإلقائهم، مهما بلغ هذا الفاعل في القُدرة ضَعْفًا، وذلك أنَّ المُلقَيْن لا حولَ لَهُم ولا قوَّة؛ إذ هُم مُقَيَّدون، مَسْلوبو الإرادَةِ والحركة، من شِدَّة الهولِ وفظاعة ما يَلقونه[3].

بلاغة الظَّرفيَّة في الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾:

إفادة إحاطة النّار بهم، وكونهم توسَّطوها

حرف الجرِّ (في) في قوله: ﴿فِيهَا﴾ يدلُّ على الظَّرفيَّة، وبلاغة

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 82، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 2/ 30.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 234.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 234.

التَّعبير به إفادَةُ إحاطةِ النّار بهم، فإذا أُلْقوا؛ صاروا منها بمنزلةٍ في وسَطِها، بحيث تُطْبِق عليهم، وتُحيط بهم كما يُحيط الظَّرف بالمظروف.

بلاغة التَّعبير بالضَّمير ﴿فِيهَا﴾:

الدَّلالة على المُراد من سوء المصيرِ وعظمة النّار التي أُلْقوا فيها

الضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾ يعود على جَهنَّم، وكأنَّه لا يوجد لهؤلاء الكُفّار شيء يُلقَون فيه إلّا هي، فكان الضَّمير كافيًا في الدَّلالة على المُراد من سوء المصير الذي يَصلونَ إليه، فلا مجال لأن يلقوا في مكانٍ في ذلك الوقت إلّا في جهنَّم، وفيه مع هذا من التَّعظيم لتلك النّار ما فيه[1].

فَرادَةُ التَّعبير بالسَّمع في السّياق:

الإشارة إلى العذابِ المعنويِّ الذي يُصيبهم معَ ما هُم فيه مِنَ العذاب الحسّيِّ

اقتضت هذه الآيةُ أنَّ الكافرين يَسْمَعون ذلك الصَّوت المرعب بعد أن يُطرحوا في جهنَّم، بينَما تُفيد آيةُ الفرقانِ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: 12]، أنَّ السَّمع يقَعُ مِنهُم قبلَ دُخولِهم النّار، حين تُبْصِرُهُم مِن بعيد، ويُجْمَعُ بين الآيتين بأنَّ سماعهم لأصواتِ العذاب يقع في الموضعين: قبلَ الإلقاء وبعده، وهذا ممّا يُضاعف فَزَعَهُم، ويُعظِّم هولَ الموقف عليهم؛ إذ السَّمع يدلُّ على تحقُّق وصول الصَّوت إلى الأذُن، والتَّعبير بسماعهم لصَوْتِها فيه دلالةٌ على أنَّه واقِعٌ لا يُمْكِن أن يتَخَيَّلوه، أو أن يظنّوه تخيُّلاتٍ، وإنَّما هو واقعٌ مسموع، وهذا السَّماع نوع من العذاب المعنويِّ، فكيف إذا اجتمع لهُم العذاب الحسّيُّ والعذاب المعنويُّ، وهذا كلُّهُ من التَّفصيل لقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

وقوع الفعل الماضي ﴿سَمِعُواْ﴾ في جواب ﴿إِذَآ﴾:

الدَّلالة على تحقُّق السَّمع، ووقوعِهِ زمَنَ الإلقاء

وقع قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾؛ جوابًا للشَّرْطِ في جُملة: ﴿إِذَآ﴾ الشَّرطيَّة، فدلَّ على تَحَقُّق السَّمع، ثُمَّ التَّعبير بالفعلِ الماضي في

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 24.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 261.

الجواب يَدُلُّ على الاستقبال، فكأنَّه بمُجرَّد الإلقاء يكون السَّماع، وذلك لعلاقة الاقتران بَيْنَ الفعل وجوابه في جُملة ﴿إِذَآ﴾، فكأنَّه لا يوجد فارق زمنيٌّ بَيْنَ إلقائهم فيها وبَيْنَ سماعهم صوتَها[1].

دلالة اللّام في ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾:

التَّعبير بـ (لها) يُفيد أنَّ الشَّهيق من خصائصِها، ملازِمٌ لها

اللّام في ﴿لَهَا﴾ للاختصاص، فتشمل: المِلك وشِبْهَ الملك، أي: (سمعوا شهيقًا خاصًّا بها)، فقوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ يقتَضي أنَّ الشَّهيق شهيقُها؛ لأنَّ أصل اللّام أن تكون لشِبْهِ الملك[2]، فكان هذا الصَّوتُ هو صوتَها حقيقةً، لا يُمْكِن أن يَنْفَصِلَ عنها بحالٍ، وهو يُعبِّر عن غلَيانها واحتِدامِها، أو صوت مَن يعذَّبون فيها.

الدَّلالة في الإضمار في ﴿لَهَا﴾:

التَّصوير المَهيب الـذي يـزيـد في فـظـاعَـةِ الموقف وهولِ المصير

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾ يعود في الأصل على النّار، أي: سمعوا للنّار شهيقًا، وهو حسيسُها المُنكر الفظيع[3]، فهي تتنفَّس كتنفُّس المُتغَيِّظ، وهذا القول هو الأرجح[4]؛ لدلالة السّياق عليه، ولمناسبة قوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾. ويجوز أيضًا أن يعود الضَّمير على من يُعذَّبون فيها، أي: سَمِعوا شهيقًا صادرًا من المعذَّبين أنفسِهم، فإنَّهم يَصْطَرِخون فيها بأصواتِ الحيواناتِ المُنْكَرَةِ الصَّوت، كقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود: 106][5]. فالإضمارُ هُنا يحتَمِلُ الوجهين[6]، ويُفيد في كلا الحالين تصويرًا مهيبًا؛ إذ سواءٌ أكان الصَّوتُ صوتَ النّار أم صوتَ أهلِها، فهو مُلتصق بها لا يَنْفَصِلُ عنها، مِمّا يزيد في فظاعةِ الموقف وهولِ المصير.

دلالة سلوك سبيل المجاز في قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾:

تقريب المعنى إلى ذهـن السّامع، والإشـعـار بـأنَّ الشَّـهـيـق سِـمـةٌ مـلازمـة لـذلـك العذاب

لا يصحُّ عود الضَّمير في ﴿لَهَا﴾ إلى المعذَّبين إلّا بسلوك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 24.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586.
(5) القاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 289.
(6) علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 189.

سبيل المجاز، ويُمْكِن توسيع المعنى على أنحاءٍ، ففيها مجاز مُرسل علاقتُه المحلّيَّة، والمعنى: (سَمِعوا لمن حلَّ فيها شهيقًا). أو أن يكون مَجازًا بالحذف، فيكون التَّقدير: (سمعوا لأهْلِها)، فالشَّهيق من الكُفّار عند إلقائهِم في النّار، فيكون الكلامُ على حذف مُضاف[1]، وفي هذا المجاز توسيعٌ لدائرة المعنى؛ لإدخال كُلِّ ما يرتبط بالنّار من أهوالٍ في تصوير مشهد العذاب؛ إذ يُصبح صوتُ العذابِ كأنَّه جزءٌ لا يتجزَّأ من كيان النّار ذاتها، سواءٌ أكان صادرًا منها أم مِن أهلِها.

سِرُّ التَّعبير بالشَّهيق مادَّة:

الدَّلالة على شِدَّة الغليان والغيظ

الشَّهيق: صوتٌ تردُّديٌّ فيه نكارةٌ، وهو يَدلُّ على حَسرة وألَمٍ وشِدَّة؛ لأنَّه يكون بتردُّد الأنفاسِ في الصَّدر بحَبْسِها، بحيث لا تَنْتَهي، وقد أُطلِق عليه (الشَّهيق) - وهو في الأصل صوتٌ يخرج من الجوف بقوَّةٍ عند جذب النَّفَس بشدَّة - لِما فيه من دلالة على الألَم والاختناق[2]، ولمّا كان الشَّهيق مِن صفاتِ من يُعاني ضيقَ النَّفَس، ويجذب الهواءَ إلى صدره اضطرارًا؛ استُخدِم هذا اللَّفظ؛ لتصوير صوت جهنَّم المُشتعلة المُتموِّجة بالنّار، وكأنَّها كائن يزفر مِن شِدَّة الغليان والغيظ[3].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالشَّهيق:

سَمِعوا لها ولأهلها صوتًا هائلًا مُنكرًا شديدَ النَّكارة

يُطلَق الشَّهيق في شِدَّته على أوَّل صوت الحمار حينَ يَنْهَق، وكُلُّ هذا يدلُّ على موقف هؤلاء، بِسَماعِهم صوتًا مُؤلِمًا فَظيعًا فيهِ خذلان أسيفٌ، ففي قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ استعارةٌ تصريحيَّة؛ شُبِّه فيها صوتُ جهنَّم أو أصواتُ أهلها بذلك الصَّوت المُنْكَر الفظيع،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 289، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 211، والطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 14.

المشابهِ لصوت الحمارِ في قُبْحِه وشدَّته، فجاء إطلاقُ الشَّهيق على نار جهنَّم تفظيعًا لمَشْهَدِها، وتخويفًا من هَوْلِها، وإبرازًا لبشاعَةِ ذلك الصَّوت الموحِش وفظاعتهِ الذي يُرعِبُ السّامعين[1].

بلاغة التَّعبير بالجُملة الحاليَّة ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾:

الـجـمـع بين فَورانِها وسماعِ صَوْتِ الشَّهيق منها

الواو في ﴿وَهِيَ﴾، من قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ واوُ الحالِ، والمعنى: (سمعوا لها شهيقًا، والحالُ أنَّها تَغلي بهم غَلَيانَ المِرْجَلِ بما فيه، وترتفعُ ألْسِنةُ لَهيبِها)، وقد أفادَت مِن جهة جزئيَّة المُشاركة بَينَ الحال وصاحبه تعليلَ سبَبِ الشَّهيق، أي: (تشهَقُ النّارُ؛ لأنَّها تفور)[2].

بلاغة التَّشبيه التَّمثيلي في الجملة الكريمة:

الـدَّلالـة على فظاعة الصَّوت الـذي يَـدُلُّ على شِـدَّة الغليان والغيظ

يجوزُ أن يكون قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ من باب التَّشبيه التَّمثيليِّ؛ إذ صَوَّرَت الآيةُ الكريمةُ مَشْهَدَ الكُفّار مِنَ الجنِّ والإنسِ عندَ طَرْحِهم في نارِ جهنَّم، فتُبيِّن أنَّهم يسمعون لها صوتًا منكرًا يَصْدُر منها، وهي تَغْلي بهم غليانًا شديدًا، وقد شبَّه اللّهُ تعالى صوتَ لَهَبِها المشتعلِ بالشَّهيق، وهو مِن أقبح الأصوات وأشدِّها نُكرًا، ويُشبه صوتَ الحمار، مِمّا يبرز فظاعةَ ذلك الصَّوت، ودلالتَهُ على شِدَّة الغضب والاضطرام، وكأنَّ النّار تُزمجِر من شدَّة ما فيها من الغَيْظِ على أهلها[3].

وقد يُفْهَمُ التَّشبيه في قوله: ﴿شَهِيقًا﴾ مِن وجهٍ آخَرَ؛ إذ إنَّ الشَّهيق في الأصل هو جذبُ النَّفَسِ إلى داخلِ الصَّدر بقوَّة حتَّى تَمْتَلِئَ الرِّئتان به، وعلى هذا الأساسِ يُشْبِهُ شهيق جهنَّم بجَذْبِها العنيفِ للهواء مِن داخل تجاويفها، أو من خارجها إلى أعماقها، حتّى يمتلئ باطنُها بتلك الرّيح الهائجة. ومِن نظام الكون: أنَّ دخولَ

(1) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 217.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 12، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 23.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586.

الرّيح إلى باطن شيءٍ ما بقوَّة يُعْطي صوتًا خاصًّا مشابهًا لشهيقِ الإنسانِ، إلّا أنَّه أشدُّ وأفزع[1]، فجاء التَّشبيه هُنا ليصوِّر هولَ ما يَصْدُر من جهنَّم عند غَليانِها واضطِرامِها.

صيغة التَّعبير بالحال جملةً اسميَّة خبرُها فعليٌّ:

الدَّلالة على لزوم صفة الفَورانِ لهذه النّار

جاء التَّعبير بجُملة الحالِ اسميَّةً في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾؛ وذلك للدَّلالة على لزوم صفةِ الفَورانِ لهذه النّار، واختيرَ الخبرُ فِعْلًا مُضارعًا؛ للدَّلالة على دوامه واستمراره، بحيث إنَّه لا يَنْتَهي، وأهلُها لا يزالون فيها صاعِدين هابطين كالحَبِّ؛ إذا كان الماءُ يَغْلي به، وكذلك تصويرُ المَشْهَدِ الذي يُجَسِّده قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: 97]، من معنى الفوران، فَكُلَّما خبَت، وقلَّ فَورانُها؛ ازدادَ، وكُلَّما ضَعُفَ؛ تجدَّد[2].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾:

تقريب صورة فظاعةِ العذاب ورَهْبَتِه إلى أذهانِ السّامعين

مِن بلاغة التَّعبير بهذه الجُمْلَةِ أن تُحمَلَ على المجاز، فَقَدْ شُبِّهت النّارُ في شِدَّة لهيبِها وتسعيرِها بالماءِ الذي يَغْلي، ويفورُ؛ لأنَّ الفَورانَ أصلٌ في وصفِ الماء، فالماءُ هو الذي يفورُ؛ فَشُبِّهت بذلك؛ للدَّلالة على أنَّها لا تَشْتَعِلُ فقط، وإنَّما تتَقَلَّب بِمَن فيها، كما يتقلَّب الماءُ الذي يَغْلي بما فيهِ مِن الحَبِّ ونَحْوِه[3]، فهي استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة؛ فشدَّة فَورانِها وغليانِها مُشبَّهٌ بِغَلْيِ الماء، والماء إذا اشتدَّ غليانُه؛ صارَ لا قرارَ له ولا ثبات، فإنَّ ما بداخله يتقلَّب معه، فكذلك النّار يتقلَّبون فيها من شِدَّة العذاب، فهُم في عذاب لا قرارَ لَهُم مَعَهُ، صاعدون هابطون في النّار مع فورانها وغليانها، وهذا المشهد فيه نقلُ صورةٍ مألوفةٍ محسوسَةٍ - وهي غليان الماء - إلى مشهدٍ رهيب غير مألوف - وهو اضطرام النّار - لتقريب فظاعة العذاب إلى أذهانِ السّامعين.

(1) الميداني، معارج التَّفكُّر: 14/ 521.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 83، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 24.

(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 326، وملاحويش آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 394.

بلاغة الفصل في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾:

بيانُ سببِ فورانِ النّار وعِلَّتِه

العلاقة بين هذهِ الآية والتي قَبْلَها: أنَّها بيانٌ لسبَبِ فَورانِها، فقال: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾؛ فكأنَّ سائلًا سألَ: لماذا تَفورُ؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا أنَّ ذلك لشدَّةِ الغَيْظِ، حتّى يَكاد ينفَصِلُ بعضُها من بعضٍ بسبب ذلك، فكأنَّ هذا الفَوَرانَ بلَغَ أوْجَهُ وأشُدَّه، فالجُملة استئنافٌ بيانيٌّ جاء تعليلًا لقوله قبلُ: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾[1].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿تَكَادُ﴾:

الدَّلالة على بلوغ الأمر إلى قُرْبِ وقوعه وإن لم يقع

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يدلُّ على أنَّها لم تَتَمَيَّز، لكنَّها وصلت مِنَ الغَيْظِ مبلغًا تكاد مَعَهُ أن يَنْفَصِلَ بعضُها عن بعضٍ، فالفعلُ ﴿تَكَادُ﴾ يَدُلُّ على تَحَقُّق الوصف وعدم وقوعِ تمامِهِ؛ لأنَّه لو وقعَ تمامُ الانفصالِ؛ لضَعُفَتِ النّار.

التَّعبير بالفعل المُضارع في ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾:

استمرارُ هيجان النّار وقوَّةِ عذابِها ولهيبِها

جاء الفعل ﴿تَمَيَّزُ﴾ بصيغة المُضارع في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾؛ للدَّلالة على تَجدُّد هذا التَّميُّز واستمراره في كُلِّ لحظة، وكأنَّ جهنَّم في حالٍ مُتواصِلٍ مِنَ الانفجارِ والتَّمزُّق من شدَّة الغضَبِ على الكافرينَ. وفِعْلُ ﴿تَمَيَّزُ﴾ مأخوذٌ مِن الأصل: (تَتَمَيَّز)؛ أي: تنفصِلُ أجزاؤها، وتتقطَّع، والانفصال هُنا يُفيد شدَّة الانفعالِ والانفجار، وله صلَةٌ بمعنى الانفصالِ والانفرادِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: 59]، أي: انفَرِدوا عن بقيَّة الخلق؛ لتَمْييزكُم بالعذاب، فاستُعمِلَ الفِعْلُ المُضارعُ في ﴿تَمَيَّزُ﴾؛ ليصوِّرَ مشهدًا دائمَ الغَليانِ، كأنَّ النّارَ في حالٍ مِنَ الهَيجانِ المُتواصل، تكاد تَنْشَقُّ غيظًا على من يُلْقى فيها، فلا سكونَ لَها ولا قرارَ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 235، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 149.

سبب حذف التّاء من ﴿تَمَيَّزُ﴾:

الإشارة إلى السُّرعة الشَّديدة في وقوعِ الحدَثِ

بعد أن وصَفَ اللّهُ تعالى النّارَ بالفَوران؛ بَيَّن سببهُ ونتيجتَهُ، فصوَّرها في حالٍ من شِدَّة الغليان والانفعالِ، كأنَّها تكاد تتقطَّع أجزاؤها، ويَنْفَصِلُ بعضُها عن بعض، فقال سُبحانَهُ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، وهذا كناية بليغةٌ عَن شِدَّة الغضب، وقد ورد الفعل ﴿تَمَيَّزُ﴾ بحذف إحدى التّاءين مِن (تتميَّز)، وذلك للإشارة إلى السُّرعة الشَّديدة في وقوع الحدث؛ لِما فيه من سُرْعَة الافتراق والانفصال، وكأنَّ هذا التَّمزُّق العنيفَ لجهنَّم يَتِمُّ على وجهٍ لا يُدرَك إدراكًا تامًّا من فَرْط هيَجانها، وهذا المشهَدُ المُفزع إنَّما هو نتيجةٌ لغضب سيِّدها ﷻ على أهل الكُفْرِ والعصيان[1].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾:

التَّصوير البديع لشِدَّة اشتعالِها ولهيبِها

قول اللّهِ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يُصوِّر مشهدًا رهيبًا لجهنَّم؛ إذ كأنَّها تتقطَّع، وتتفرَّق من شدَّة غيظها على الكافرينَ أعداءِ اللّهِ تعالى، وفي هذه الصّورة البيانيَّةِ تصويرٌ بديع لشدَّة اشتعالِها ولهيبِها، وقد جاءَت في قالَبِ استعارَةٍ مكنيَّة رفيعةٍ، فقد شُبِّهت جهنَّم بإنسانٍ بالِغ الغضَبِ، اشتَدَّ به الحنَقُ على عدوِّه حتّى كادت أعضاؤه تتفتَّت من شدَّة الغيظ، وقد حُذِف المشبَّه به - الإنسانُ - ورُمِز إليه بلازِم من لوازمه، وهو الغيظُ، فكان هذا مِن أرقى صوَرِ الاستعارة المكنيَّة، وهو مأخوذٌ مِنَ التَّعبير العربيِّ: (تميَّز فلانٌ مِنَ الغيظ)، أي: كاد ينفَصِلُ بعضُه عن بعض من شِدَّته، فاستُخدِمت هذه الصّورة في وصف جهنَّم؛ لإبراز ما فيها من اضطرام داخليٍّ وغضب عظيمٍ يُقَطِّعُ أجزاءَها مِن شِدَّة الغيظ على الفجّار[2].

ويجوز أن يكون هذا تخييلًا تابعًا للمكنيَّةِ، بأن شُبِّهت جهنَّمُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 235.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّر المصون: 10/ 383، والصّابوني، الإبداع البياني: 1/ 360.

في شدَّة اضطِرامِها وغليانِها وقوَّة ما تُحْدِثُه مِنَ الأذى في أهلِها، بإنسانٍ بلَغَ بهِ الغَيْظُ مبلغَهُ، فاشتَدَّ حَنَقُه، وبالغ في إيصال الضَّرر إليه، فتوُهِّم لها صورةٌ كصورةِ الحالِ المُحقَّقة الوجدانيَّة، وهي الغضب الباعث على ذلك، واستُعير لتلك الحالِ المُتَوَهَّمة للغيظ[1].

الإشـــارة إلى أنَّ الانـتـقـام إذا انبعث من المَـغـيـظ؛ يـقـعُ على قدر غَيْظِه

وهذا الأسلوب يُعَدُّ من أوجز ما يُعبَّر به عن المعنى، وأقواه تأثيرًا؛ لأنَّ شِدَّته على النَّفس أمرٌ مُدرَك محسوس، لا يُحتاج في إدراكهِ إلى تأمُّل طويلٍ، ولأنَّ الانتقامَ إذا انبعَثَ مِن المَغيظ؛ يقَع على قدر غيظِه، ففي هذا التَّصوير بيانٌ عجيب وزجْرٌ بالغ، لا تقوم مقامَه الحقيقةُ البَتَّة[2].

بلاغة التَّشبيه التَّمثيليّ في الجملة الكريمة:

تـصـويـر شِـدَّة اضـطـراب الـنّـار واشتعالها

تُبَيِّن هذه الآيةُ حالَ نار جهنَّم حين يُلقى فيها الكفّار، فهي تكادُ تتَقَطَّع من شدَّة الغَيْظِ والغضَبِ، ففي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ شُبِّهت فيه الهَيْئَةُ المُنتزعة من أمورٍ عديدَةٍ، وهي النّار وشدَّةُ الاشتعالِ بِها وحصول الألم الشَّديد بها بهيئةٍ أخرى مأخوذةٍ مِن أشياءَ كثيرةٍ، وهي: المُغتاظُ واغتياظُه وكمالُ حِرْصِه في إيصال الألم الفادحِ إلى مَن غَضِبَ عليه، بحيثُ يكادُ المُغتاظُ يتفرَّق مِن كمالِ غضبِه، ووجهُ الشَّبه: قوَّة التَّأثير، لكِن هوَ في المُشَبَّه أقوى، وفي المشبَّه به أعرفُ، فالمُشبَّه حالُ فوران النّار وتصاعد ألسِنَةِ لهيبها، والتهام مَن يُلقَونَ إليها، والمُشبَّه به حالُ المُغتاظ شديدِ الغَيْظِ، لا يترك شيئًا ممّا غاظه إلّا وصبَّ عليه جامَ غضَبِه، والغرضُ مِن هذا التَّشبيه: أن يَتخيَّل السّامعُ مَدى شِدَّة الاضطراب حتَّى قاربت أجزاءُ نارِ جهنَّم أن تتقطَّع، وهذا كقولهم: غضب فلانٌ، فطارت مِنه شقَّة في الأرض، وشقَّة في السَّماء[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 12، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 18.
(2) العسكري، الصِّناعتين، ص: 272.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 191، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 24.

سِرُّ الكنايةِ في التَّعبير بالغيظِ هاهُنا:

الإيحاءُ بعظمَةِ الغضَبِ المُتَّقد في النّار تجاه الكافرينَ

في قول الله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، كناية عن شِدَّة هذا الغيظ، فيكون في قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ استعارةٌ وكنايَةٌ عن شِدَّة الغضب[1]، بحيث صار الغيظُ من شِدَّته كأنَّه يُمزِّق ذاتَها، فكأنَّ هذا الأسلوبَ البليغَ الذي يوحي للسَّامع بعظمَةِ الغَضَب المُتَّقد في النّار تُجاه الكافرينَ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ هُنا:

تعظيمُ ابتداءِ غَيْظِها، فما الظَّنُّ بنهايته؟

﴿مِنَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يجوزُ أن تكون سببيَّة، أي: بسبَبِ الغَيْظ[2]، أو أن تكونَ بمعنى اللّام، أي: لأجل الغيظ الذي هي فيهِ، لكنَّ حَمْلَها على معنى الابتداءِ أبلغُ؛ لأنَّ المعنى يكون: تكاد تميَّز من ابتداءِ الغيظ الذي فيها، وإذا كانت بهذه الحالِ في ابتداء غَيْظِها؛ فما الظَّنُّ بتمامِ غَيْظِها ونهايته؟ فيكون المعنى هُنا أشَدَّ وأعظمَ.

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالفعل ﴿تَمَيَّزُ﴾:

النّار بما فيها من فورانٍ داخليٍّ وغضبٍ تفتِكُ بمَن يُلقى فيها

في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ استعارة بليغة؛ إذ شُبِّهت نارُ جَهنَّم برجُلٍ بلغَ بهِ الغَيْظُ مُنْتَهاه، حتّى أوشَكَ أن تتَمَزَّق أعضاؤُه مِن شِدَّة الانفعال، فقد شُبِّه اشتعالُ النّار وتأثيرُها العنيف في الكافرين بحالِ مغتاظٍ شديد، يُبالغ في إيصال الأذى إلى مَن أغضَبَهُ، حتَّى صار الغيظُ هو المُحرِّك الظّاهرَ له، ومن هُنا جاءت استعارةً تصريحيَّة؛ إذ أُطلِق على هذا التَّأثير المُشتعلِ اسمَ ﴿ٱلْغَيْظِ﴾، وهو اسمٌ للمُشبَّه به، بعدَ حذف المُشبَّه (الإنسان)؛ للدَّلالة على ما في النّار من فَوَرانٍ داخليٍّ وغضبٍ يَفْتِكُ بِمَن يُلقى فيها لا يُمكِنُ الإحاطة بكُنهه[3].

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 326، والبقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 235.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 383، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 239.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 83.

سِرُّ الفصل بين هذهِ الجُملَةِ وما قبلَها مِنَ الكلام:

بيانُ سببِ خِزيِ الكُفّار في الآخرةِ

قولُ الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ جاء بَعدَ وصفِ مَشهَدِ النّار المُروِّع عند استقبالِها لأهلِها؛ ليتبعه مُباشرةً بيانٌ لِما يلاقيه الدّاخلون من مواجهَةِ الخزنَةِ لَهُم، فجاءت الجُملةُ استِئنافًا بيانيًّا، كأنَّما سألَ سائِلٌ: ما سبَبُ هذا المصير؟ ولِمَ استحقَّ هذا الهول؟ فكان الجواب: لأنَّهم كذَّبوا رسلَ اللهِ تعالى الذين جاؤوهم بالحقِّ، ولم يعيروا دعوتهم التِفاتًا، ولم يتدبَّروا ما جاؤوا به من هدى، فالجملة تكشِفُ عن حقيقة جُرمهم، وتُبرز ندمَهُم بعد فوات الأوان؛ إذ لَم يَلتَفِتوا إلى النُّذر، ولا إلى آياتِ الله تعالى التي دَعَتْهُم للتَّبصُّر، فأُلقوا في جهنَّم فوجًا بعد فوجٍ، كُلَّما انتهى فيهم جماعَةٌ؛ تَبِعَتْهُم أخرى[1].

سرُّ التَّعبير بالتَّركيب ﴿كُلَّمَآ﴾:

التَّركيب يصوِّر مَشهدًا مُتكرِّرًا يُضاعَفُ مِن الفزَعِ، ويُؤكِّد شِدَّة العذاب

﴿كُلَّمَآ﴾ الشَّرطيَّةُ تدلُّ على التَّكرار، أي: إنَّ هذا يحدُثُ كثيرًا على وجهِ التَّكرارِ، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 64]، أي: إنَّهم يوقدون نيرانَ الحربِ كثيرًا، ويُطفِئُها الله تعالى كثيرًا؛ تَبَعًا لكثرة إيقادِهِم لَها، وكذلك في آية المُلْكِ تدلُّ على أنَّهم يُلقَون في النّار فوجًا بعد فوجٍ مُتتابعين، وكُلَّما أُلقيَ فيها فوجٌ؛ سُئِلوا؛ إذلالًا لهم، وإقامةً للحُجَّة عليهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾.

ومجيء ﴿كُلَّمَآ﴾ في الآية الكريمة، وهي مُركَّبة من (كُلَّ) الدّالة على الشُّمول، و(ما) المصدريَّة الظَّرفيَّة التي تُؤوَّل مع ما بعدها بمصدر؛ يُفيد التَّكرار المطَّرد، أي: في كُلِّ مَرَّة يُلقى فيها فوجٌ من الكافرين في النّار؛ يُقابلهم خَزنة جهنَّم بالتَّقريع والتَّوبيخ.

وقد اكتسبَ هذا التَّركيب دلالةَ الشَّرطيَّة مِن اتِّصال (كلّ) بـ(ما) المصدريَّة الظَّرفيَّة، فأشبَهَ أدواتِ الشَّرط من حيثُ التَّرتيب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 24.

والارتباطُ بين جملتَيْنِ مُرتَّبةٍ إحْداهُما على الأُخرى، وهذه الصّيغةُ تُصوِّر مشهدًا متكرِّرًا يضاعف من الفزع، ويُؤكِّد شِدَّة العذاب؛ إذ لا يدخُلُ فوجٌ إلّا وتلقّاه خَزَنَة النّار بالتَّبكيت، مِمّا يزيد الحسرةَ على ما فَرَّطوا فيهِ[1].

سِرُّ انتخابِ الفعل الماضي ﴿أُلْقِيَ﴾ و﴿سَأَلَهُمْ﴾:

تصوير حالٍ مستقبليَّة بصورة الماضي؛ لتأكيدِ تحَقُّقها وقطعيّتها

من التَّناسب هُنا مجيءُ فِعْلَي ﴿أُلْقِيَ﴾ و﴿سَأَلَهُمْ﴾ ماضيَين؛ لأنَّ أكثر ما يقَعُ الفعلُ بعد ﴿كُلَّمَآ﴾ أن يكون بصيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّها لمّا شابهت الشَّرط؛ استوى الماضي والمُضارع معَها؛ لظهور أنَّه للزَّمن المُستقبل، فأوثِر فعلُ المُضيِّ؛ لأنَّه أخفُّ[2]، وأقوى في استحضارِ المَشْهَدِ، فهي تصويرُ حالٍ مستقبليَّة بصورة الماضي؛ لتأكيد تحقُّقها وقَطْعيَّتها، وكأنَّ الفعلَ قَد وقَعَ، وانتهى، مِمّا يزيد من وقْعِهِ النَّفسيِّ في تَصَوُّر أهوالِ الموقف.

دلالةُ التَّعبير بالإلقاءِ في مقامِ التَّعذيب:

الإشارة البليغَةُ إلى المَهانة والذِّلَّة

في اختيار الفعل ﴿أُلْقِيَ﴾ دون غيره من الأفعال إشارَةٌ بليغة إلى المَهانَةِ والذِّلَّة، التي يُعامَل بها الكافرونَ عندَ سَوْقِهم إلى جهنَّم؛ إذ يُصَوَّر دخولُهُم النّار بإلقاء شيءٍ لا قيمة له، يُرْمى رميًا دونَ اهتمام أو عناية، فتقَعُ حيثُ تقَعُ، غيرَ مُلتَفَتٍ إليها، تمامًا كما تُطرَح النِّفايات، أو يُلقى المَتاعُ المُستَغنى عنه، فلا يُراعى لهم قَدْرٌ، ولا تُحْفَظُ لهم كرامَةٌ بِسببِ سوءِ صَنيعِهِم[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿فِيهَا﴾:

الدَّلالة على إحاطة النّار بهم

في التَّعبير بـ ﴿فِيهَا﴾ دلالةٌ على إحاطة النّار بهم، وشمولِها لَهُم؛ لما يدلُّ عليه حرفُ الظَّرفِ مِن توسُّطِهم فيها إذا أُلقوا فيها، كما يتوسَّط الظَّرف بالمظروف فيه؛ إذ أُلقيَ المظروفُ في الظَّرف.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 29/ 25.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآني: 15/ 1056.

بلاغَةُ التَّعبير بالفَوْجِ:

الدَّلالة على كَثْرَةِ جَماعاتِهِم

الفوج هو الجماعة من النّاس مطلقًا، فيُستعْمَلُ في أهل الفضل وأهل الفجورِ، فكُلٌّ منهما يُقال له: فوجٌ، ففي النّار أُلْقِيَ فيها فوجٌ، وقال الله في الإيمان: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: 2]، وعُبِّر بلفظِ ﴿فَوْجٌ﴾ في آية الملكِ؛ للدَّلالةِ على كثرَتِهم، فهُم جماعاتٌ كثيرة جدًّا، وذلك يُفيدُ أنَّ أهل النّار يدخلونها جماعةً بعدَ جماعةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38][1]، ومع كثرة جماعاتهم فإنَّهُم يُلقَونَ فيها كإلقاءِ الرَّجل الواحد على وجهِ الإذلال والمهانَةِ والحقارةِ[2].

سِرُّ تنكير لفظ ﴿فَوْجٌ﴾:

الدَّلالة على الاحتقارِ للكُفّار وترسيخ مشهدِ المَهانَة

نُكِّر لفظ ﴿فَوْجٌ﴾، مِنْ قول اللّهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾؛ لإرادَةِ التَّحقير، فكأنَّ هؤلاء الكُفّار - على كَثْرَتِهم - لا يُعَدّون شيئًا يُلْتَفَتُ إليه، فهُم مُجَرَّد جماعاتٍ، لا وزْنَ لها تُرمى في جهنَّم رَمْيًا، فلا يُذكَرون بعنوانِ التَّعظيم، بل يُعامَلون معاملةَ المُهان المُحْتَقَر، مِمّا يُعمِّق مشهدَ المهانةِ، ويُرسِّخ الإهانةَ.

خطابُ المُفْرَدِ بلَفظِ الجَمعِ:

تعميمُ التَّوبيخ لَهُم

جاءت الضَّمائرُ في قول الله تعالى: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ضمائرَ جمعٍ، وقد تقدَّمها أنَّ الذي يُلقى هو فَوْجٌ، ولفظُ الفوجِ مفردٌ، وأعيدَ الضَّميرُ على ﴿فَوْجٌ﴾ جمعًا، في قوله: ﴿سَأَلَهُمْ﴾، وقوله: ﴿يَأْتِكُمْ﴾؛ لتأويل الفَوْجِ بجماعَةِ أفْرادِه[3]؛ تعميمًا للتَّوبيخ لَهُم.

سِرُّ التَّعبير بالسُّؤال في قول الخزنة لأهلِ النّار:

تقديمُ التَّنبيهِ الـذي يُـثـير التَّرقُّب، ثُمَّ يليه تفصيلٌ يوضِّح المُرَاد

عُبِّر بقوله تعالى: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾، بدلًا من (وقال لهم خزنتها)؛ لمُناسبة السّياق؛ إذ إنَّ لفظ السُّؤال أعمَقُ أثرًا في

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 8/ 232.
(2) ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 395.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 25.

النَّفس؛ لأنَّه يبدأ بإجمالٍ يُثير التَّرقُّب، ثُمَّ يليه تفصيلٌ يوضِّح المُراد، فجاء البيان في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ مُفسِّرًا لذلك السُّؤال، فالمعنى: توجَّه إليهم خزنَةُ جهنَّم بسؤالٍ قائلينَ: ألم يأتِكُم مَن يُنذركم هذا العَذابَ[1]؟.

دلالة ذِكْرِ الخَزَنَةِ في مقام التَّعذيب:

الخَزَنَةُ في الأصل: هم الذين يَخْزنون الأشياء التي لها قيمةٌ، والخزَنَةُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ هم خَزَنَةُ النّار، وذلك ليُحيطوا بالمُعَذَّبين فيها، فلا يستطيعُ أحَدٌ منهم أن يكون لهُ منها حراكٌ أو خروجٌ منها بفكاكٍ، فكان التَّعبيرُ بالخزنة لزيادةِ رهبَةِ الموقفِ وتأكيد الإحاطة بالمجرمين.

زيادةُ رهبَةِ الموقف وتأكيدُ الإحاطةِ بالمُجرمين

بلاغة الكناية في التَّعبير بالسُّؤال:

السُّؤال هاهُنا كنايةٌ عَنِ الإذلال، وليس بقصدِ الإجابة ولا معرفةِ الجواب، فالإجابة معروفَةٌ، والسُّؤالُ هاهنا سؤالُ إذلال وتوبيخٍ وتَقريعٍ ومهانةٍ[2].

بلاغة الفصل في قولهِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ اللهَ تعالى لمّا قال: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾؛ بعثَ هذا في نفس المتلقّي سؤالًا، وهو: ما كان سؤالهم؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا أنَّهم قالوا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ موبِّخين لهم، مُهينين مُذلّين مُبْكِتين مُحتجّين عليهم في استحقاقهم العذابَ؛ زيادةً في تعذيبهم تعذيبًا روحانيًّا بعد تعذيبهم جسمانيًّا، أو في عذابهم بتعذيب أرواحِهم بعد تعذيبِ أشْباحِهم[3].

تفصيلُ تَبْكيتِهم وتَوْبيخِهم والاحتجاجِ عليهم في استحقاقِهم العذابَ

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 192.
(2) الملا علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 189، والشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 2/ 431.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 236، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 12.

دلالةُ الاستفهام في هذا المقامِ:

إفادَةُ التَّقرير مع التَّوبيخ والتَّنديم زيادة في إيلامهم

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ خرجَ عن أصلِ دلالتِهِ، من إرادةِ طلب العلم بشيءٍ لم يكُن معلومًا من قبلُ، إلى معنى التَّقرير، والمقصودُ منهُ: إقرارهم ببلوغ الحُجَّة إليهم، وهذا التَّقرير ليس إقرارًا مجرَّدًا، بل هو أيضًا إنكارٌ عليهم وتوبيخٌ شديد، يقترن بالتَّنديم، حتَّى يزدادوا حسراتٍ فوقَ حسراتِهم، فهو يجمع عليهم بَيْنَ عذاب الحسِّ من لهيب النّار، وعذاب الرّوح من تقريع الملائكة وتوبيخهم، فيشتدُّ عليهم الألمُ النَّفسيُّ، كما يشتدُّ العذابُ الجسَديُّ[1].

سِرُّ التَّعبير بالإتيان دون المجيء:

التعبير بـ (الإتيان) فيه سُهولةُ وصول النَّذير، وإشارةٌ إلى لُطف الله تعالى بعباده

الإتيان فيه سهولةٌ ويُسر، بخلاف المجيء، فإنَّ فيه نوعًا من الصُّعوبة، ويدلُّ على ذلك قول الله تعالى حين جمع بينَهُما عن مريم عليها السلام: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]، ففي ذهابها إلى قومها عُبِّر بالإتيان، وفي مجيئها بالولد عُبِّر بالمجيء؛ لأنَّه شيء مُستنكَرٌ عندهم، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ دالٌّ على سُهولة الإتيان، ثُمَّ جُعِلَ النَّذير هو الآتي، وهذا مِن لُطْفِ الله سُبحانَهُ بهم في أنَّه لم يَطْلُب مَنهُم أن يَبحَثوا هُم عن النَّذير، بل أرسلَ النَّذيرَ إليهم، فجعل النَّذير هو الفاعلَ لفِعلِ الإتيان، وليس المفعولَ، وجعل الكُفّار هم الذين أتى إليهم هذا النَّذيرُ.

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿يَأْتِكُمْ﴾:

عُبِّر بالفعل المُضارع بعد (لم) في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، وهو يُفيد المُضيَّ، وذلك لاستحضار الحالِ الماضيةِ، كأنَّ النُّذر أتتْهُم الآنَ، أو أنَّها ماثلة بَينَ أيديهم.

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 5.

سِرُّ التَّعبير بالنَّذير بدل الرَّسول أو الدَّليل:

الإنـــذار فيـه معنى الإعـلامِ والتَّخويف مَعًا

جاء التَّعبير القرآنيُّ ههنا بـ (النَّذير) بَدَلَ (الرَّسول)، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: ألم يَأْتِكُم رسول؟ أو ألم يأتكم دليل؟ لأنَّ الرُّسُل إذا أتت أوَّل ما تأتي؛ تأتي للكُفّار، تُخَوِّفُهم، وتُنْذِرُهم؟ فإذا آمَن مِنهُم بعضٌ؛ بَشَّرت أهلَ الإيمان، وأنذرت أهلَ الكفر والعصيان، وفي آية سورة المُلكِ ذُكِرَ المُراد من الرُّسل حين يُرْسَلون إلى الكُفّار، وهو الإنْذارُ والتَّخويف، ولأنَّ الإنذارَ فيه معنى الإعلامِ والتَّخويفِ مَعًا[1].

إيثار التَّعبير بصيغة (فعيل):

المُبالغة في كون المُنذِر لَم يُرْسَل إلّا لإنذارهم

في التَّعبير بصيغةِ (فعيل) في لفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ معانٍ مُتعدِّدةٌ، وهذا من بلاغة القرآنِ في أنْ يذكر الصّيغة الواحدة، فتُفيد جُملةً من المعاني، فالنَّذير يُمْكِنُ أن يكونَ مصدرًا للفعلِ أنذرَ إنْذارًا، أو يكون اسمَ مصدرٍ لأنذرَهُ، أو مصدرًا لنَذَره، أو يكون اسمًا، أو يكون صيغة مُبالغة على فعيلٍ، أو يكون صفة مُشَبَّهة باسم الفاعلِ؛ لأنَّه لا يوجد ناذِرٌ مِن الفعل الثُّلاثي، إنَّما يوجد نذير، وتعدُّد هذه الاحتمالات مع اللَّفظ الواحد دلالةٌ على بلاغة القرآن، في احتواءِ اللَّفظ الواحد لجُملة من المعاني، فإن قُلنا: إنَّه اسمٌ، فهو واقع على الأصلِ، وإن قُلنا: إنَّه مصدرٌ، فهو تأكيد لِلفِعْل، والمعنى: (ألم يأتِكُم رجُلٌ نذير يُنْذِرُكم)، أو: (ألم يكن إنْذارٌ مِن نذير؟)، وإن كانت صيغة مُبالغةٍ؛ فهي دالَّةٌ على كثرة إنذاره، وعلى كونِها صِفَةً مُشبَّهة باسم الفاعل، فيكون النَّذير مُلازمًا لهم حاضرًا معهم، ويكون غير ذلك مِن هذه الاحتمالاتِ، وكُلُّها تُفيد معانيَ مُتعدِّدةً.

ومن الأدلَّة على أنَّ لفظ (النَّذير) تأتي مصدرًا أو اسمَ مصدرٍ، أو اسمًا بمعنى المصدر، قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، أي: إنذاري، ومن التَّعبير عنها باسم الفاعل أو الصِّفة المُشبَّهة باسم

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 8/ 233، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 26.

الفاعل قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: 188]، أي: مُنذر[1] مُبشِّر، وسِرُّ التَّعبير بهذه الصّيغة مع احتمالاتها كُلَّ المعاني؛ المُبالغةُ في كون المُنذر لم يُرْسَل إلّا لهذا، وأنَّ حياتَهُ كلَّها لم يكن فيها إلّا الإنذار، فيُفهم منه معنى القصر، وإن لم يكن بأسلوبِ قَصْرٍ اصطلاحيٍّ.

بلاغة الاستئنافِ، ودلالةُ الاعتراض في جملة الفَصْلِ:

الاعـــتراف بما وبَّخوهم عليه بـعـد سُـــؤال الخزنة

جملة: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ﴾ مقدَّر، والمعنى: فماذا كان ردُّهم بعد سؤالِ الخزنة؟ فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾. ويَحْتَمِلُ أن تكون الجملةُ اعتراضيَّةً بين كلام خزنَةِ جهنَّم؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الفوج قاطعهم مُسارعين إلى الاعترافِ بما وبَّخوهم عليه، وذلك من شِدَّة الخوف والهلع. وقد فُصِلت الجملةُ؛ لكونها اعتراضًا، ولوقوعها في سياق المُحاورة، وذلك على القول بأنَّ جملة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هي من بقيَّة كلام خزنة جهنَّم[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾:

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾ مع أنَّهم لمّا يُسألوا بَعْدُ؛ لكونِ ذلك سيكون يوم القيامةِ؛ للدَّلالة على تَحقُّق هذا الفعل وتأكُّد وقوعِهِ.

دلالةُ الجمع في ﴿قَالُواْ﴾:

الـــدَّلالـــة على الإقـرارِ التّامِّ من الكُفّار

في إسناد فعل القول إلى ضمير الجمع ﴿قَالُواْ﴾؛ دلالة على أنَّ هذا الجوابَ سيَكون مِنَ الكُفّار كُلِّهم، فَهُم جميعًا مُجيبون إجابةَ ذُلٍّ وخزيٍ رُغْمًا عن أنفُسِهم، وعُبِّر فعل القول ﴿قَالُواْ﴾ دون: (أجابوا)؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يُعبَّر بالإجابةِ؛ لأنَّ الخزَنَة سألوهم، وذلك لأنَّ الفعلَ ﴿قَالُواْ﴾ مشعِرٌ بأنَّهم قالوا ذلك على وجهِ الاعتراف العامِّ، فقالوا ذلك فيما بينَهُم وبَيْنَ أنفُسِهم، وقال كُلُّ واحدٍ مِنْهُم

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 8/ 232.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25، والدرويش، إعراب القرآن: 10/ 149.

لنَفْسِه، وقالوه للملائكة خَزَنَةِ جَهنَّم، وقالوا لِكُلِّ الدُّنيا، حتَّى للنّار نَفْسِها: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾.

سرُّ الإجابة بـ﴿بَلَىٰ﴾:

الإقرارُ الصَّريحُ بوُصول النَّذير إليهم

في التَّعبير بـ ﴿بَلَىٰ﴾ دلالةٌ على تَحَقُّق الجواب؛ لأنَّ السُّؤال كان بالنَّفي، فجاء الجوابُ بنَفْيِ النَّفي، وهو إثباتٌ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، فكان جوابُهم دَفْعةً بحرْفِ ﴿بَلَىٰ﴾ المُفيدِ نَقيضَ النَّفيِ في الاستفهامِ[1].

دلالة دخول ﴿قَدْ﴾ على الجواب:

تحقيقُ الكلامِ وتأكيدُه

في التَّعبير بـ ﴿قَدْ﴾ تحقيقُ الكلام وتأكيدُه، و(قد) إذا سُبِقت باللّام تَدُلُّ على قَسَم محذوفٍ، وإذا لَم تُسْبَق باللّام؛ جاز احتمالُها القَسَمَ، وهي هُنا دالَّةٌ على قسمٍ محذوف احتمالًا، والتَّقدير: قالوا: بلى واللهِ قَد جاءنا نذيرٌ، وهذا مِن تأكيدِ الكلام بحيثُ لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ، فإذا كانوا في الدُّنيا شاكّين أو مُتردِّدين أو جاحدين، فإنَّهم هُنا مُقرّونَ إقرارًا اشتمَلَ على كلِّ ألوان المُؤكِّدات، فقولهم: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ جاء تأكيدًا لمعنى الإثبات الذي أفادته ﴿بَلَىٰ﴾، ولو اقتصروا على ﴿بَلَىٰ﴾؛ لكان المعنى واضحًا، لكنَّهم أضافوا هذا التَّصريح إمعانًا في إظهارِ الحَسْرَة، وزيادةً في تعميقِ شُعورِهم بالأسى على تَفْريطِهم في الاستجابَةِ للنَّذير، فجاء هذا التَّكريرُ في سياقِ التَّحسُّر، مقرونًا بحرف التَّحقيق ﴿قَدْ﴾؛ ليَزيدَ المعنى ثبوتًا، ويُبْرِزَ شدَّةَ نَدَمِهم واعترافَهُم الصَّريح بخَطَئِهم[2].

سِرُّ التَّعبير بالمجيءِ في هذا الجوابِ:

الدَّلالة على صعوبتِهِ في أنفُسِهم

عُبِّر بالمجيءِ في قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾؛ للدَّلالةِ على صُعوبَتِه في أنفُسِهم؛ لأنَّ السُّؤال ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾،

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 383، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 239، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25، 26.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 383، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 239، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 25، 26.

والإتيان فيه نوعُ سهولَةٍ، بخلاف المجيء؛ فإنَّ فيهِ عُسرًا وصعوبةً، فلم يقولوا: (بلى قد أتانا نذير)، إنَّما قالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا﴾، أي: إنَّه قد كان شديدًا على أنفُسِنا مجيئُهُم؛ لأنَّه يُصادِمُ شهواتِنا ورغباتنا.

دلالةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

الـدَّلالـة على شِدَّة تَحَسُّرهم

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ؛ إذ مقتضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (ألم يأتكم نذير؟ قالوا بلى)، أو (بلى قد جاءنا)، فيُفهَم مِن كلمة (بلى) أنَّه قد جاءهم نذيرٌ، لكنَّهم صَرَّحوا بقولهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾؛ للدَّلالة على شِدَّة تَحَسُّرهم، فكأنَّهم أجابوا بما يُفهِم زيادةً في البيانِ.

دلالة فصل قوله: ﴿قَدْ جَآءَنَا﴾ عمّا قبلها:

تفصيلُ الإجابة الموجزةِ وشَرْحُها في قولهم (بلى)

فُصِلَ قوله: ﴿قَدْ جَآءَنَا﴾ عمّا قبلها، وهي قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ؛ وذلك لأنَّهم لمّا قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، فكأنَّ سامعًا سألَ ما الذي حَدَثَ بعد ذلك؟ فبَيَّنوا كلامَهُم، أو أنَّها استئناف بيانيٌّ لشَرْحِ الإجابة الموجزةِ وتفصيلِها في قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾[1].

بلاغة الإطنابِ في قوله: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾:

قولُه تعالى عن الكفّار: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ هو قولٌ صادِرٌ منهم على وجه الاعتراضِ بأنَّه تعالَى قد أزاحَ عِلَلَهم بالكُلّيَّةِ، جامِعينَ بينَ حرفِ الجوابِ ونفْسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ مُبالَغةً في الاعترافِ بمَجيءِ النَّذيرِ، وتحسُّرًا على ما فاتَهم مِن السَّعادةِ في تَصديقِهم، وتَمهيدًا لبَيانِ ما وقَعَ منهم مِن التَّفريطِ؛ تَندُّمًا واغتمامًا على ذلك، فجاء جوابُهم جَوابَ المُتحسِّرِ المُتندِّمِ[2].

دلالةُ تقديم المسنَدِ في ﴿جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، وإعادة ذِكْرِ النَّذير في الجوابِ:

قُدِّم المُسنَد - وهو الفعلُ - على الفاعلِ ﴿نَذِيرٌ﴾، في قول الله

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 5.

الدَّلالة على وصول النِّذارة إليهم والتَّشويق إلى الفاعل

تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾، وهو من ضروراتِ العربيَّة؛ إذ لا يصحُّ في صناعةِ اللُّغةِ أن يُقال: (جاء نذيرٌ إيّانا)، ولا يمنَعُ أن يكون مع ذلك نُكتةٌ بلاغيَّةٌ، وهي هنا الدَّلالةُ على وصول النِّذارة إليهم من أيِّ جهة كانَت، وتأخيرُ لفظِ النَّذير يدلُّ على تشويقِ الكلامِ إليه، وما سيقولونَهُ في تَتِمَّة كلامِهم.

سِرُّ إفراد النَّذير في الجُملة الكريمة:

الدَّلالة على المُبالغة والتَّغليب

النَّذير في قولِ الله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهًا من المعنى، فقد يُراد به الجَمْعُ؛ إذ هو على وزن فعيلِ الدّالِّ على الكثرة، ويَحْتَمِل أن يكون مصدرًا مُضافًا، أي: أهل إنذار، ويجوز أن يُستعمَل نعتًا على سبيلِ المُبالغة، حتَّى كأنَّ الرُّسل عينُ الإنذار ومصدرُه، وقد يُراد به المُفرد، غيرَ أنَّ الخِطابَ يتوجَّه إليهِ وإلى أمثاله تغليبًا، أو يُقام تكذيبُ الواحدِ منهم مقامَ تكذيبِ جَماعَتِهم؛ إذ المآلُ فيهما سواءٌ[1].

دلالةُ التَّنكير في ﴿نَذِيرٞ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿نَذِيرٞ﴾، في قول الله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾؛ تنويهًا بعَظَمَة هذا النَّذير، وعلى كَثْرَتِهم، وتنويع هذه النُّذر.

بلاغَةُ العَطْفِ بالفاء هاهُنا:

الدَّلالة على سُرعة تكذيبِهم وجُحودِهم

الفاءُ في قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ تَدُلُّ على سُرعة التَّكذيب؛ لأنَّ الفاء تَدُلُّ على تتابع المعطوف على المعطوفِ عليهِ، كأنَّه لم يكُنْ ثمَّة فَرْقٌ في الوقت بين الإنْذار وبَيْنَ التَّكذيب.

دلالة التَّضعيف في الفعل (كَذَّب):

التَّعبير بالفعل الثُّلاثي المُضاعف (كَذَّب)، يدلُّ على كثرة التَّكذيب وشِدَّته؛ لاحتوائه كُلَّ ألوان التَّكذيب، ولِكُلِّ قولٍ قاله النَّذير[2].

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 545.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 236.

دلالة العطفِ في جملة ﴿وَقُلْنَا﴾، وسِرُّ تقديم التَّكذيب على القولِ:

التَّكذيب صدر في نفوسهم قبل أن يتفوَّهوا بالكلام المذكور بعد ذلك

قول الله تعالى حكايةً عن الكفّار قولهم: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾، أي: اجتمع التَّكذيب والقولُ في وقتٍ واحدٍ، أو أنَّهم كَذَّبوا، وقالوا مقالةَ المُكذِّب، والعطفُ بالواوِ يَقتَضي التَّشريك، قُدِّم التَّكذيب على القول، ولم يُعكَس، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (قالوا: بلى، قد جاءنا رسولٌ، فقلنا، وكذَّبنا)، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ التَّكذيب صدَرَ في نفوسهم قبل أن يتفوَّهوا بالكلام المذكور بعد ذلك، ووجه ذلك: أنَّ الإنسان قد يحيكُ في صَدْرِه تكذيبًا، فيعزم عليه، ثُمَّ يتفوَّه، ويتكلَّم به بعدُ، فكان تقديم التَّكذيب على القولِ دالًّا على أنَّ التَّكذيب حَلَّ في صدورهم قَبْلُ بمُجرَّد الإنذار قبل أن يُعْلِنوا، وهذا يَدُلُّ على سفاهة الكُفّار في أنَّهم لَم ينظروا في الكلام، ولم يتمعَّنوا فيه، ولم يُحاولوا أن يَعْرِفوا حُسنَه، إنَّما أسْرَعوا إسْراعًا شَديدًا إلى التَّكذيب قبل القولِ.

الدَّلالة على المُجاوزة في العناد قصدًا وقولًا

ومن فوائد تأخيرِ القولِ على التَّكذيبِ في قولهم: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾: أنَّهم لم يكتَفوا بالتَّكذيب والإعراضِ عَن إنْذارِ المُنْذِرين ودعوةِ الرُّسل أجمعين، بل تجاوزوا ذلكَ إلى القول، وذلك مِنهم على سبيلِ العِناد والجُحودِ والغُرور، فَقالوا: ما نَزَّل اللهُ على أحد منكم أيُّها المُنذِرون من شيءٍ.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:

الإمعانُ في العِنادِ والتَّكذيبِ

عُبِّر بـ ﴿مَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾؛ لِما تدلُّ على ﴿مَا﴾ من تأكيدِ النَّفْي، وهي بمنزلةِ ﴿قَدْ﴾ في الإثباتِ، وهذا مِنْهُم إمعانٌ في العنادِ والجحودِ.

سرُّ التَّعبير بالفعل الثُّلاثي المُضَعَّف ﴿نَزَّلَ﴾:

الدَّلالة على تَكرار النّازل وتتابع النُّزول وتوالي التَّنزُّلات

في التَّعبير بالفعل الثُّلاثي المُضَعَّف ﴿نَزَّلَ﴾، بدل: نَزَلَ أو أنزل: دلالَةٌ على تَكرار النّازل وتتابع النُّزول وتوالي التَّنزُّلات مِنَ الله ﷻ؛

تأييدًا لأنبيائِهِ بالمعجزات، أو بَيانًا له بالشَّرائعِ، ومع هذه الأنواع من التَّنزُّلات إلّا أنَّهم أنكروا ذلك كُلَّهُ.

بلاغة التَّعبير بالاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهُ﴾ في هذا المقام:

في التعبير بالاسمِ الأحسَن (الله) من المهابةِ والجلالِ ما فيهِ

لم يقولوا: ما نَزَّلَ الرَّحمن، أو ما نَزَّل الرَّبُّ، وإنَّما عبَّروا بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للإشعارِ بعقوبة التَّكذيب وخطورته؛ لأنَّ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ فيه مِنَ المهابةِ والجلالِ ما فيه؛ إذ يَدلُّ على الكمال المُطلق، فكأنَّهم قالوا: ما نزَّل الله الذي له كُلُّ صفات الكمال[1] والجلال والجمال، الذي له هذه الهيبَةُ والمَنزلة.

كون السّورة تناولت ألوانًا مِنَ العذاب

وأُسنِدَ فعلُ ﴿نَزَّلَ﴾ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ دون اسم (الرَّحمن)؛ لأنَّ في سورة الملكِ ذِكْرَ العذاب ومعاقبة الكُفّار؛ فلا يُناسِبُ إزاءَ كلِّ هذا التَّهديد والتَّحذير للكافرين أن يَقْرِنَهُ باسْمِ الرَّحمن، كما أنَّ القائلين لهذا القولِ إنَّما هُم في أطباقِ النّيران، وقد اشتدَّ غضَبُ الله تعالى عليهم، ولَم تُدركهُم رحمَتُه؛ فلا يُناسِبُ ذِكْر الرَّحمن هنا[2].

سِرُّ حذف مُتعلَّق الفعل ﴿نَزَّلَ﴾:

الدَّلالة على العمومِ في الإنكار والتَّكذيب

في قول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذْ أصلُ الكلام: (ما نَزَّل الله عليكم من شيء)، لكنَّه حُذِفَ (عليكم)؛ للدَّلالة على العموم، كأنَّهم لم يكذِّبوهم وحدَهُم، بل كَذَّبوهم، وكَذَّبوا كُلَّ الرُّسُلِ السّابقين واللّاحقين، والتَّقدير: ما نَزَّل الله على الأرضِ لا عليكُم، ولا على غَيْرِكم، ولا على مَن سَبَقَكُم، ولا على مَن بعدكم شيئًا، فكان في حَذْفِ المُتَعَلِّقِ دلالَةٌ على عموم الإنكار والتَّكذيب، ويُؤكِّد هذا كَلِمةُ ﴿نَزَّلَ﴾؛ كأنَّه لم يَرِد التَّراوح بين المعجزة والشَّريعة لرسولٍ واحدٍ فقط، بل على كُلِّ ما نَزَّله الله ﷻ على كُلِّ الرُّسل السّابقين واللّاحقين، فتَدَرَّجوا إلى حالٍ أنْكَروا فيها، وكذَّبوا فيها كُلَّ الرُّسلِ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.
(2) السّامرائي، لمسات بيانيَّة لسور القرآن، ص: 11.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿مِن﴾ الجارَّة:

التَّنصيص على العموم في الأشياء

التَّعبير بـ ﴿مِن﴾ الجارَّة؛ يُرادُ بها التَّنصيصُ والعمومُ في نَفْيِ كُلِّ مُنَزَّل من السَّماء، كأنَّه قال: ما نَزَّل اللهُ تَعالى من أيِّ شيءٍ، لا مِن وحْيٍ ولا من شريعةٍ ولا من مُعجزة، وحرفُ الجَرِّ ﴿مِن﴾ صِلَةٌ، وقد دَخَل على النَّكرة المنفيَّة؛ فأفاد التَّنصيصَ على العموم، فليس في العبارةِ احتمالٌ للتَّخصيص بحالٍ مِنَ الأحوالِ[1].

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿شَيْءٍ﴾:

إفادةُ عموم نفي الأشياء كُلِّها

لفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ أعمُّ كلمةٍ في اللُّغة العربيَّة، ونفيها هنا لا يَنفي إنزالَ معجزة لِرُسُلٍ ولا إنزال شريعةٍ ولا إنزال وحيٍ، بل تَعُمُّ كُلَّ شيءٍ نازلٍ مِنَ اللهِ ﷻ، فكأنَّهم قالوا مُبالغين ما أنزل اللَّهُ تعالى مِنْ مَطَرٍ، وما أنزل اللَّهُ مِن سحابٍ، وما أنزل الله تعالى مِن رِزْقٍ، وما أنزل اللَّهُ تعالى مِن خير؛ لأنَّ كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ أعَمُّ لفظٍ في لُغة العرب، فهي تُفيد عمومَ نَفْيِ الأشياء كُلِّها، وهذا مِنهُم مُبالغة في الإنكار والجُحودِ حينَ يُحيط الكِبْرُ والجبروت بالكافر، وفي التَّعبير بـ ﴿شَيْءٍ﴾ دون (وحي)، دلالة على أنَّهم كانوا يُحيلونَ أن يُنَزِّل الله تعالى وحيًا على بشَرٍ[2].

بلاغة التَّنكير في لفظ ﴿شَيْءٍ﴾:

إفادة التَّنويع من جِهَةٍ، والعموم مِن جِهَةٍ أُخرى

التَّنكيرُ هاهُنا يُفيد عموم النَّفي؛ لأنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تُفيد العموم، ومِمّا يُفيدُه التَّنكيرُ: تعظيم هذه الأشياءِ وتَنَوُّعها، كأنَّهم قالوا: ما أنزل الله من أيِّ شيءٍ كبيرًا كان أو صغيرًا، فما مِن نوعِ شيءٍ مِنَ أشياء إلّا وهو مَنفيٌّ عنه الإنزالُ، فالتَّنكير هاهُنا يُفيد التَّنويع من جهةٍ، والعمومَ مِن جهة أُخرى، وهذه عادةُ أهلِ الكفرِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91][3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 26.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، 579، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224.

بلاغَةُ الفصلِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾:

تأكيدُ التَّكذيب السّابق

قول الله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، إمّا أن تكون مِن تمامِ كلام الكُفّار للرُّسل، فيكون الفصلُ فيها لتأكيدِ التَّكذيب السّابقِ، فَإذا كان المُرسَلُ كاذبًا - بزعمهم - فهو في ضلالٍ، فكأنَّهم لَمّا نَفَوا رسالَتَهُم، ونفوا عنهم أن يكون اللهُ قد نَزَّل عليهم شيئًا؛ قالوا: إن كنتُم كذلك كاذبين ونحن نكذِّبكم؛ فأنتُم في ضلالٍ كبيرٍ، وجُمِعَ كلامُ جَميعِ الأفواجِ في عبارةٍ واحدةٍ، فجيءَ بضَميرِ الجمْعِ، والمرادُ التَّوزيعُ على الأفواجِ، أي: قال جَميعُ الأفواجِ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، إلى قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ على طَريقةِ المثالِ المشهورِ: (رَكِبَ القومُ دَوابَّهم)، وإمّا على إرادةِ شُمولِ الضَّميرِ للنَّذيرِ وأتْباعِه الَّذين يُؤمِنون بما جاء به[1].

حكايةُ ما كانوا عليه مِن ضَلالِهم في الدُّنيا إخبارٌ لهم وتَقريعٌ

ويحتَمِلُ أن تكون الجملةُ من بقيَّةِ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ؛ فَصَلَ بينهما وبين ما سَبَقَها مِن كَلامِهم اعتراضُ جَوابِ الفَوجِ الموجَّهِ إليهم الاستفهامُ التَّوبيخيُّ، فأرادوا حِكايةَ ما كانوا عليه مِن ضَلالِهم في الدُّنيا؛ إخبارًا لهم وتَقريعًا، أو أرادوا بالضَّلالِ: الهلاكَ الَّذي هم فيه، أو سَمَّوا عِقابَ الضَّلالِ باسمِه ضَلالًا؛ لَمّا كان ناشئًا عن الضَّلالِ؛ تَسميةً لهُ باسمِ سَببِه، ويُؤيِّدُ هذا إعادةُ فِعلِ القولِ في حِكايةِ بَقيَّةِ كَلامِ الفوجِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾؛ لانقطاعِه بالاعتراضِ الواقعِ خِلالَ حِكايتِه[2]، وعلى هذا تكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ لورودِها جَوابًا عَن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، والتَّقدير: بِماذا أجابَتْهُم الخَزَنَة؛ فجاء الجواب: قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ لأنَّكم كَذَّبتم الرُّسُل، فاستحقَقْتُم النّار.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 578، 579، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 224، وأبو السُّعود، وإرشاد العقل السَّليم: 9/ 5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

ويجوزُ أن يكون الكلامُ أيضًا من كلامِ الملائكة، أو مِن كلام الله ﷻ، كأنَّ هذه الجُملة جاءت تذييلًا للحُكم على كُلِّ مُكذِّب من الكُفّار بأنَّهم كانوا في ضلالٍ كبير في الدُّنيا، وحَقَّ عليهم آثارُ الضَّلال يومَ القيامةِ، وإن كانَ الوجْهُ الثّالث قَلَّ مَن يذكره من المُفسِّرين، وهو أنَّ هذا من كلام الله ﷻ زيادةً في المهانَةِ.

بلاغة التَّعبير بالقَصْرِ:

إفـادةُ قَـصْـرِ الـضَّـلال على الذَّوات

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يُفيد قصرَ الضَّلال على الذَّوات، ومَعْنى القصْرِ المُستفادِ مِن النَّفي والاستثناءِ: قصْرُ قلْبٍ، أي: ما حالُكم الَّتي أنتم مُتلبِّسون بها إلّا الضَّلالُ، وليس الوحْيَ الإلهيَّ والهُدى - كما تَزعُمون[1] - فإن أنتُم إلّا في ضلال كبير كأنَّهم لم يكونوا في دُنيا، ولم يكونوا في حياةٍ، ولم يكونوا في سعادة، إنَّما كانوا في ضَلالٍ مبينٍ.

بلاغَةُ التَّعبير بـ ﴿إِنْ﴾ بدل (ما) و(لا):

عـدمُ انـفـكـاكِ الـكُـفّـار من الـضَّـلال بحالٍ من الأحوال

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ ﴿إِنْ﴾ النّافية مع ﴿فِي﴾، في جُملة القَصْرِ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ لأنَّ الكلام هاهُنا في الآخرة، وأمّا (ما) و(لا)؛ فإنَّما يُذْكَر غالبًا في أمور الدُّنيا، بما في (ما) و(لا) من مدٍّ دالٍّ على الامتدادِ في الزَّمان؛ لتَتَجاوَزَ حُدود الدُّنيا، وتَشْمَل الآخرة، لكِن أغلب ما يُستعمَل في الحديث عن الآخرة إنَّما يكون بـ (إن). أو أنَّهم إن كان الكلامُ مِن الكُفّار للرُّسل يُريدون الحالَ التي أنْذَروهُم فيها، فكأنَّهم قالوا: إن أنتم الآن حالَ إنذارِكُم إلّا في ضلالٍ كبيرٍ، فالمعنى مع ﴿إِنْ﴾، أي: حين اعترفْتُم الآن، فأنتُم في ضلال كبيرٍ لا يُمكن أن تَنْحَلّوا عنه، ولا أن تَتحرَّكوا منه، ولا أن تَنفَكّوا عنه بحالٍ من الأحوالِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

سِرُّ جمع ضمير المُخاطَب:

الإشارة البديعةُ إلى أنَّ ردَّهم جميعًا كان على نسَقٍ واحد

جُمِع ضمير المخاطَب في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ للمُبالغة في بيان تكذيبِهم وتماديهم في الضَّلال، مع أنَّ الخطابَ في الأصل موجَّه إلى كُلِّ فوج جاءَهُ نذيرُه، وفي هذا الجمع إشارة بديعة إلى أنَّ ردَّهم جميعًا كان على نسقٍ واحد، لا يختَلِفُ بعضُه عن بعض، حتَّى كأنَّهم - على تباعد أزمانِهم وتفرُّق بلدانهم - قد تَواطَؤوا على مَوْعِدٍ واحِدٍ للإنكار والجحودِ[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾ في الاستثناء:

كونهُ أقوى في الدَّلالة على معناه من غيرها

الدَّلالة في الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾ أقوى من الدَّلالة في الاستثناء بـ: غير، وسوى؛ لأنَّها أمُّ الباب، وأمُّ الباب تكون أقوى في الدَّلالة على معناهُ مِن غيرها، وأقوى في العمَلِ من بقيَّة أخواتها، والاستثناءُ بـ (إلا) أقوى من بقيَّة أدوات الاستثناء، والدَّليلُ على ذلك: أنَّ (إلّا) لا تكون إلّا للاستثناء منقطعًا كان أو مُنفصلًا، أمّا بقيَّة أدواتِ الاستثناء؛ فيجوزُ أن تكون للاستثناء، وأن يكون فِعْلًا ماضيًا، وتكون لدلالاتٍ أخرى، كَورود (سِوى) لمعنى التَّسوية، ونحو ذلك، فأمُّ الباب لا تَحتمل إلّا المعنى الذي فيه، فسِرُّ التَّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾ هاهنا الدَّلالةُ على قوَّة الاستثناء مع النَّفي الدّالِّ على الحَصْرِ الَّذي لا يَخرُج منه شيءٌ.

بلاغة التَّعبير بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

بيانُ انغماسِهم في الضَّلال وإحاطَتِه بِهِم

في التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾؛ دلالةٌ على الاحتواء والظَّرفيَّة، فكأنَّهم لا يكونون في حالٍ مِنَ الأحوالِ، ولا في زمانٍ من الأزمان، ولا في شيءٍ من الأشياء إلّا وهم مُنْغَمِسون في الضَّلال، وهو مُحيط بهم من كُلِّ جانب، فهُم لا يَستَطيعون منه حِراكًا ولا عنهُ فِكاكًا، وعلى هذا فَهُم في الضَّلال، والضَّلال مُحيطٌ بهم من كُلِّ جانب، لا يمكن

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 5.

أن يَدْخُل إليهم غَير الضَّلال، ولا أن يَخرجوا هُم مِن هذا الضَّلال، فالظَّرفيَّةُ في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾؛ لتَشبيههم تَمحُّضَهم للضَّلالِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ[1].

بلاغَةُ التَّعبير بالمَصْدَرِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

لم يقولوا: إن أنتم إلّا ضالّون، أو مُضِلّون، أو تَضلّون، بل جاء التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ؛ ليدلَّ على الحدَثِ مُنفصلًا عن الزَّمان، وعن الفعل والفاعل، فهُم في ضلالٍ سابِقٍ وقابِلٍ ولاحقٍ، وفي ضلالٍ يَعُمُّ الزَّمانَ والمكان، وفي ضلالٍ هُم سَبَبُه وهُم نتيجَتُه، فقوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ يحوزُ كُلَّ هذه المعاني.

الدَّلالة على شمولِ الحدَثِ لهم منفصلًا عن الزَّمان

بلاغة المجاز في التَّعبير عنهم بكونهم في ضلالٍ:

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ استعارةٌ؛ إذ شُبِّه ما هم فيه من التَّكذيب والكفر ومعاداةِ الرُّسل بالتَّوَهان؛ وذلك أنَّ أصلَ الفِعْلِ (ضَلَّ): تاه، تقول العربُ: فلان ضلَّ الطَّريق، أي: تاهَ فيه، فالكفّارُ في تَوهانٍ، يَسيرونَ يمينًا وشِمالًا، وشَمالًا وجنوبًا، غربًا وشرقًا، فلا يستطيعونَ أن يَصِلوا إلى نهايةٍ، ولا أن يوَفَّقوا إلى غايةٍ، فكان التَّوهانُ لازمًا لهم لا ينفضُّ عنهم في الدُّنيا، وكذلك هذا التَّوهان في العذاب تُقْذَفُ به من نارٍ في كُلِّ جانب منها، ثُمَّ يعودون إلى مكانهم مرَّة أخرى.

الدَّلالة على أنَّ التَّوَهان لازِمٌ لَهُم لا ينفكُّ عنهم في الدُّنيا والآخرة

وقد يكون وجهُ الاستعارة على غير هذا المعنى؛ إذ شُبِّه الضَّلالُ المعنويُّ بشيء حِسّي، ثُمَّ رُمز له بشيءٍ مِن لوازمه، وهو الظَّرفيَّة، أو تكون الاستعارةُ في حرف الجَرِّ ﴿فِي﴾، وتكون استعارةً تبعيَّة، أي: إنَّ التَّعبيرَ لَهُ ألوانٌ مُتعدِّدة مِنَ المجاز يَحْتَمِلُها، كما يحتَمِلُ أن يكون مجازًا بالحَذْفِ، والتَّقدير: (إن أنتم إلّا في أهلِ ضلالٍ).

تصوير شِدَّة انغماسهم في الضَّلال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 27.

دلالة تنكير لفظَي ﴿ضَلَٰلٍ﴾ و﴿كَبِيرٍ﴾:

الدَّلالة على التَّعظيم

نُكِّر لفظُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وكذا لفظُ ﴿كَبِيرٍ﴾ تبعًا له؛ لإرادَةِ التَّعظيم، فيشْمَلُ العِظَمَ الحِسّيَّ والمَعنويَّ، فالعِظَمُ الحِسّيُّ في لفظ (الضَّلال)، والعِظَمُ المعنويُّ في ﴿كَبِيرٍ﴾[1].

دلالة وصفِ الضَّلال بكونهِ كبيرًا:

كون هذا الضَّلال شَديدًا بالغًا غايةَ ما يَبلُغُ إليه جِنسُه

وصْفُ الضَّلالِ بالكبيرِ في قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ معْناه: أنَّه شَديدٌ بالغٌ غايةَ ما يَبلُغُ إليه جِنسُه[2]، فزاد في النِّكايةِ وصْفُ هذا الضَّلال بأنَّه كبير، والضَّلال الكبير إن أُريد به الجانِبُ الحِسّيُّ في الكِبَرِ؛ دلَّ على الامتداد الذي لا يستطيعونَ أن يتحَرَّكوا من داخِلِه، وإن كان الكِبَرُ معنويًّا يَكْبُر في المكانة والمنزلة، فهو بذلك يَشْمَلُ كُلَّ ألوان المعنى الذي يَصدر عن لفظِ ﴿كَبِيرٍ﴾ في الحِسِّ وفي المعنى، فهوَ ضلالٌ عَظيم شديدٌ، وضلال يُحيط بهم، مُمتَدٌّ حولَهُم محيطٌ بِهِم، لا يستَطيعونَ الخُروجَ مِنهُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 26.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"